فلسفة القيصاريا

العودة– نحن– يوبا الثاني

د. مونيس بخضرة، جامعة تلمسان
mounis.bekherda@univ-telemsan.dz

الملخص:

يعد سؤال الفلسفة في الجزائر، سؤال ممكانات عديدة بتعدد الفراغات المتراصة والمتجاورة التي ظلت قائمة في بنيات الوعي الجزائري، سواء في حضوره تاريخي(الوعي الحدثي) أو في ملامسته للأشياء وجدله معها(الوعي الظاهراتي). الوعي الأول يترك للمؤرخين وللمختصين في تحليل الذاكرة، لتبسيط لحظاته العنفية والتسامحية وإحصاء عدد الأفراد ووصف المواقع وذكر الشواهد التي شهدت المعارك بصفة مستمرة ، والتي لم تختف ولو للحظة من هذا التاريخ. أما النوع الثاني وهو بيت قصيد دراستنا هذه. الذي يظهر في تحليل اللحظات المنيرة التي توّج فيها العقل الجزائري في تاريخه، وأحسن فيها مساءلة نفسه والعالم معا، وهي اللحظة نفسها الذي كان فيها العقل اليوناني يبني عالمه جديد من رماد الشرق.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة؛ القيصاريا؛ العودة؛ يوبا الثاني.

تمهيد:

يعد سؤال الفلسفة في الجزائر، سؤال ممكانات عديدة بتعدد الفراغات المتراصة والمتجاورة التي ظلت قائمة   في بنيات الوعي الجزائري، سواء في حضوره تاريخي(الوعي الحدثي) أو في ملامسته للأشياء وجدله معها(الوعي الظاهراتي). الوعي الأول يترك للمؤرخين وللمختصين في تحليل الذاكرة، لتبسيط لحظاته العنفية والتسامحية وإحصاء عدد الأفراد ووصف المواقع وذكر الشواهد التي شهدت المعارك بصفة مستمرة ، والتي لم تختف ولو للحظة من هذا التاريخ. أما النوع الثاني وهو بيت قصيد دراستنا هذه. الذي يظهر في تحليل اللحظات المنيرة التي توّج فيها العقل الجزائري في تاريخه، وأحسن فيها مساءلة نفسه والعالم معا، وهي اللحظة نفسها الذي كان فيها العقل اليوناني يبني عالمه جديد من رماد الشرق، و نقصد بها القرون الخمسة الأولى ما قبل الميلاد إلى غاية القرن السادس للميلاد، وهي المدة التي شهدت عصر التنوير الجزائري بامتياز، لما شهدته من حركية ثقافية متميزة لا تضاهيها أية حركة بعدها.

قول في العودة retour: كثير ما ارتبط فعل العودة بمواطن محددة وأشياء نعرفها، وسبق لنا وأن عشنا تجاربها وتفاعلنا مع تأثيراتها وانعكاساتها على الشعور والذاكرة، مما يعني أن العودة فعل حضور لم تختف معالمه من الذات،

فهو عمل يفتح طريق اختفت معالمها بسبب النسيان والهجران من دون أن تمحى علامات الوطن والقصد الأصلي فينا، وهذا يعنى أن صيغ العودة المتعددة هي ضرب من فعل تسامح خاص، غالبا ما يكون بعد المراجعة وصدمة حقيقة الشيء الذي سنعود إليه بنوع من التأنية واليقين. وإذا ما تناولنا العودة في سياقات مختلفة في الفن والتاريخ والفلسفة والمعرفة بصفة عامة، سنجدها مشروطة بما هو ماضي، فهي أداة نستحضر بها الماضي وبها نجعله يشاركنا حاضرنا، فهي فعل مشحون بالبراكسيس وبكل ما هو عملي، وعمليتها تجعل من الماضي مجاورا للحاضر كلما تطلب الأمر ذلك.

منذ قدم، ظلت العودة سبيل نجاة وحماية، وقانون هدي الأنبياء والرسل، وسبيلا متينا للعلماء والفلاسفة، بهدف ربط حلقات التاريخ ببعضها البعض، برباط المصلحة وتصحيح الأخطاء والهفوات، على غرار عودة أفلاطون إلى سقراط، وعودة أرسطو إلى أفلاطون، وعودة يوبا الثاني إلى قايصاريا، والنبي موسى إلى القدس، والنبي مُحَّد(ص) إلى مكة، ونبي عيسى إلى الناصرة، وهيجل إلى التاريخ، ونيتشه وهيدغر إلى الإغريق. فهي بهذه المعاني بمثابة مشروع كامل يتخذ من إعادة بناء العلاقات وترميمها من جديد مقصدا أساسيا له لا يمكن أن نحايد عنه في أي لحظة من اللحظات، وبقدر ما هو عمل مادي هو أيضا عمل سيكولوجي فريد من نوعه، حضورهما ضروري في بناء المعرفة والواقعة معا.

من هذا التبصّر، تتضح أهمية العودة في قدرتها على العودة. قدرة تجعل منها فعل إرادة خالص، يجب أن يكون حاضرا معنا في منازلة الحقائق وفي تفكيك النزل والحوادث لاستحضار ما يمكن استحضاره، فهو فعل يساعدنا على التأسيس وفتح أفق جديدة ومغايرة.

داخل هذا سبيل تحققت عودة فريدريك نيتشه باستلهامه الروح اليونانية، وهو يعيد قراءة الفلسفة اليونانية في عصرها المأساوي، التي بها أعاد إنزال فلاسفة ما قبل العصر السقراطي إنزالا مغايرا ومختلفا، بما أنه كان إنزالا ثقافيا بالدرجة الأولى، وفي إعادة ترتيب مبادئ فلسفة العصر بما يثبت ويدعم بعضها البعض، وهي النمطية نفسها التي ظهرت بها استطيقا هيجل في عودته لجماليات الشرق، لتحديد معنى الروح وتعرجاته التاريخية الذي سيكون شغل شاغل فينومينولوجيا الروح، وكيف لفن العمارة أن يحمل المعقولية المتخفية في أشكالها وألوانها، التي ستكون منسجمة بشكل كبير في العمارة الإغريقية حينما استطاعت أن تنشأ المصالحة بين الروح والمادة.

نحن والعودة: القارئ لمشهد واقع الفلسفة في الجزائر منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، أي ما يقارب ثلاث وخمسين سنة كلها، حتما سيدرك مدى الفتور والجمود الذي عرفته الفلسفة كنوع من أنواع النشاط المعرفي في هذا المجتمع، رغم أنها حقبة شهدت أسماء مهمة تميزت بمواقفها وأرائها في قضايا مختلفة،

من دون أن تحدث أثرا واضحا في معالم جغرافيا الفلسفة الجزائرية، برغم وجود الإمكانات المادية المؤسساتية والعقلية لتحقيق هذا المطلب[1].

وإذا ما قارنا واقع الفلسفة بواقع الأدب في الجزائر خلال هذه الفترة مثلا، لوجدنا أن الأدب الجزائري عرف تطورا لافتا، سواء من حيث ما كتب فيه من نصوص، أو من حيث نوعية المواضيع الذي أنجزها على غرار نص نجمة والحريق وريح الجنوب واللاّز...إلخ، وهي نصوص كانت علامة فارقة منذ الستينيات والسبعينيات وثمانينات القرن الماضي وبداية العشرية الجديدة. إذ نعتقد أن سر بروزه يعود إلى روح العامة التي سادت هذه الحقب، والتي كانت روح عاطفية وروح مساندة وروح بطولية، وإعادة استلاهم مآثر الأمجاد، وبالتالي كان أدبا واقعيا، استطاع أن يرفع انشغالات الواقع الجزائري رفعا فنيا ونصيا، وهو السبب الذي ساعد على إنجاز النصوص والعبارات وهو مطلب ضروري للمعرفة.

أما الخطابات الفلسفية خلال هذه الحقب فقد ظلت فاترة، باستثناء الخطابات الكلامية التي اقتصرت على الفكر الإسلامي، ولم تكن قادرة على إنجاز النصوص ضمن السياق الكتابي، وعلى إبداع المفاهيم والتصورات المطلوبة الحاملة للدلالات والقصديات. واكتفى المشتغلون على الفلسفة بالشرح الليساني والحوارات غير مقيدة في الكتب والمجلات، وهذا ما يمكننا وصفه بالخسارة الكبرى للعقل الجزائري المعاصر، فقد ضيع فترة ملهمة على

التفلسف والإبداع، وفقد عصرا كان مليئا بالأسئلة الإنسانية والأنطولوجية والأكسولوجية والجمالية، فبدل الاشتغال على هذه المجالات الحيوية، انساق العقل الجزائري إلى قضايا ايديولوجية وهمية وتحدث باسم الطبقة المتفلسفة على حيثياتها بما أنهم الأقدر على خوض مسائل ايديولوجية مثل عبد الله شريط ومصطفى الأشرف من جهة وعمار طالبي وقسوم عبد الرزاق من جهة أخرى، بينما الذين عاصروهم وظلوا متمسكين بفلسفة الفلسفة وجلهم غادر الوطن على غرار جاك دريدا وألبر كامي ولوي ألتوسير ومُحَمَّد أركون، فقد استطاعوا أن يقدموا نصوصا عالمية خالدة، وهي علامة فارقة على قدرة العقل الجزائري الفلسفية.

ومن بين الأخطاء المتوارثة في حق العقل الفلسفي الجزائري، هو كثيرا ما يؤرخ له منذ لحظة الاستقلال إلى يومنا هذا، وهو خطأ شائع يعكس الصورة النمطية التي نرى بها جزائريتنا، على أنها بدأت مع هذه اللحظة. وإذا وظفنا براكسيس العودة في تفكيك هذا المستند، سنجد أن الفلسفة في الجزائر قديمة بقدم سؤال بدء الفلسفة نفسه. فهي تعود إلى ما قبل الميلاد، إلى مدرسة قايصاريا(شرشال) مع الفيلسوف والمؤرخ الملك يوبا الثاني، والفيلسوف تريانتوس آفر، والفيلسوف أبو ليوس المدواري (مدوارش- سوق اهراس) صاحب كتاب التحولات وغيرهم من الفلاسفة القدماء، وهذي يعني أن

الفلسفة ليست غريبة عن أرض الجزائر بحكم الآثار التاريخية والشواهد الآثارية.

إن الأحكام التاريخية المتوارثة في حق تاريخ الفلسفة الجزائرية، تعود بالأساس إلى التصورات المدفونة في لا الشعور، والتي شوهت تاريخ هذا المجتمع بأكمله، النابعة من التشوهات التي أحدثها توالي الاستعمار على هذه الأرض منذ ما قبل الميلاد إلى غاية عصرنا الحالي، أي ما يقارب ألفين وخمس مئة عام، وكل استعمار إلا وله براديغمه الخاص الشامل الذي فرضه على الوعي الجمعي السائد، وبما أن براديغمات المستعمرين الذين تعاقبوا على هذه الأرض مختلفة وفي بعض الأحيان متناقضة، خلقت وعيا مشوشا على مستوى اللغة وضبط المفاهيم، وعلى كيفية بناء الأحكام وتقرير الأشياء، وعلى أسالب العيش وبناء مجرى الحياة بصفة عامة، فتاريخ الجزائر هو تاريخ استعمار.

تحت هوة تجزؤ حقب هذا التاريخ، صارت ذواتنا مجزأة وغير مستقرة، فالأنا الجزائرية أنا مترنحة لا مستقر لها، تبحث عن الكينونة الأصلية في هذا الوجود وإذا ما سلمنا أن تاريخ الذات هو تاريخ معنى، فمقصد وجودها هو لتأكيد هذا المعنى وجعله أثرا ظاهرا.

أمام هذا الواقع، صرنا أمام خيارات عديدة، ومعظمها هي خيارات معاناة واستمرار بفراغات مترابطة تعمل على تحقق هذه الاستمرارية، ولم يعد بيدنا

إلا خيار العودة. العودة إلى الأصول وإلى مصادر ثقافتنا بحثا عن كينونتنا، وهي عودة من أجل تأكيد ثقافة الإحياء على جميع الأصعدة، وهذا الذي يجعل من فلسفة العودة فلسفة علاجية وآثارية معا، بقوتها الاستشفائية والترميمية، حيث أننا مطالبون أكثر من أي وقت مضى على أن نعود إلى مدارسنا وإلى فلاسفتنا وإلى معلمينا وحكمائنا، ونستحضرهم لمشاركتنا همومنا ومشاكلنا وأزماتنا، عن طريق فعل المحاكاة والإستلاهم، في مقابل تعلمنا مفهوم الحرية الحقيقي، بعد أن نتحرر من ما فرض على عقولنا، على أن اختلاف معتقداتنا وتعدد لهجاتنا وثقافاتنا هو دليل عدم أخوتنا، وهي أحكام جزافية تعد إحدى أكبر معوقاتنا الحضارية، ولكن الحقيقة أن يوبا الثاني وآفر وأبو ليوس وأوغسطين والأمير عبد القادر ودريدا وأركون ومهيبل وغيرهم، هم إخوة من أبناء هذه الأرض التي انقسم حولها الغزاة.

إن عودة- نحن، هي عودة واقع بأكمله إلى الأصول، وإلى لحظات البدء، فهي تستخلص ترحال بنية حايتية معطوبة تبحث عن النموذجية وعن الرؤية السليمة للأشياء وللحقائق، ولبناء هوية متناغمة ومنسجمة صلبة، تتكيف مع المستجدات وكل ما هو طارئ. فعودة – نحن، هي عودة معنى يعاني من الشقاء ليستثمر في الأسس الأصلية التي تشكل منه تاريخه وتحددت بها ثوابت معالمه. وهي العودة نفسها التي أقامها الفيلسوف الأمير عبد القادر في نصوصه المختلفة في قراءته للوجود وللإنسان الكامل وفي اكتشافه لسلاسة

الروح، وأيضا في مراجعته للفلسفة اليونانية في نص المقراض الحاد، وهي تجربة لا تختلف كثيرا عن تجربة يوبا الثاني في نصوصه المسرحية وذوقه الجمالي الذي ظهر في معالم وحدائق قايصاريا، وعلى تحصيله الفلسفي على يد كبار فلاسفة أثينا. فكلاهما حقق حلم أفلاطون وهو حلم الملك الفيلسوف، فقد أظهرا مقدرة عالية في فن الحكم والإدارة، وتوظيف السياسة في صنع الحداثة التي يتطلع إليها الرعية، وكلاهما رفض المستعمر وسلكا خيار المقاومة وهذا دليل إيمانهم القوي بفضيلة الحرية والسيادة، وكلاهما أيضا أحب الشعر وأوصلا به حكمتهما في الحياة وجعله لغة من درجة أولى. أما أبو ليوس صاحب إنجاز أول نص قصصي فلا يختلف كثيرا عن مولود فرعون وعن كاتب ياسين وعن ياسمينة خضرة والطيب حنصالي وغيرهم، في قدرتهم على إبداع النص الروائي وجعله قادرا على حمل ثقل الواقع المعاش وأسئلته، وآفر لا يختلف عن اسياخم والهاشمي قروابي وأحمد وهبي وحسني وغيرهم في ذوقهم الفني والجمالي وجعله ملهما جماهريا. هم كلهم سليلون الروح الجزائرية وثقافاتها.

إن الإبداع الفلسفي الخلاق، يتطلب بالضرورة خلق النصوص كمتكئات معرفية، التي هي الأخرى تجعل من التواصل المعرفي بين الأجيال أمرا ممكنا، وفي الوقت نفسه تساهم في إيجاد فضاء حيوي لإتيقا النقاش والحوار، الذي يتولد عنه شروط التفلسف من اختلاف وأفكار ونقد وشك. فالنص هو

صراط التفلسف وهو قبس سحر الكتابة، ولا يستطيع الشفهي أن يؤدي وظائفه الأساسية، وعليه نحن أمام مسؤولية الكتابة الفلسفية التي تبقى خيارا محوريا في تشييد المدرسة الفلسفية الجزائرية المنشودة، وهي كلها أساسيات تنبني على فعلين مهمين وهما: فعل العودة المشروط بالتأمل والبناء، وفعل الكتابة الذي ينتج النص الفلسفي المطلوب وفق سياق متداخل ومتكامل، ومن دون هذين المبدأين، تبقى الفلسفة في الجزائر أغلوطة.

تاريخ الفلسفة الجزائرية:

تأتي هذه الدراسة لتنقّب على المعالم الفكرية والفلسفية والفنية وتاريخ الأفكار وأعمال الفلاسفة الجزائريين في العصر القديم، لكن هذا العمل محصور في الزمان والمكان. الزمان هو ما يسمى بالفترة القديمة وتبدأ من القرن الرابع ما قبل الميلاد لتنتهي مع نهاية القرن الرابع بعد الميلاد.

لماذا التفكير في هكذا مواضيع؟ السبب بسيط ويمتثل في الحيف الذي لحق تاريخ الأفكار بالجزائر القديمة، سواء تعلق الأمر بالأفكار العلمية أو غير العلمية أو الفلسفية والثقافية بصفة عامة، ومن بين المظاهر هذا الحيف كون أغلب المؤرخين للعلم خاصة للعلوم الصورية والتجريبية، ينطلقون من أفكار مسبقة، غالبا ما يصعب الدفاع عنها، ومن بين هذه الأفكار نكتفي بذكر الأمثلة التالية:

- أن الفكر المغاربي القديم فكر عملي أكثر من كونه نظري. فهو فكر زراعة والعمل وكيفية تخمير الخمور وتربية الحيوانات، وكيفية توزيع المجاري المائية وما شابه ذلك، وسوف نرى أن هذا الاعتقاد غير صحيح على بتة، لأن لدينا أعمالا مغاربية قديمة غارقة في التجريد في ميادين مثل الرياضيات والمنطق والفلسفة[2].

- وقيل أن الفكر المغاربي فكر شفوي، وهذا أيضا غير صحيح لأن المغاربيين القدامى كتبوا في لغات غير لغتهم الأم وهي لغات عديدة. وهذا دليل على أنهم عبروا عن أفكارهم بالكتابة. فمنهم من كتب باليونانية ومنهم كتب باللاتينية ومنهم من كتب بالعربية ومنهم من كتب بالفرنسية وغيرها. ومن هنا جاء خطا يتمثل في تجريد المغاربيين من أعمالهم وإلحاقهم بالشعوب التي كتبوا في لغاتها.

- ويعتقد أيضا، أن اغلب مؤرخي الأفكار العرب، بأن المنطقة المغاربية كانت منطقة جرداء قبل غزو العرب والمسلمين لها. فلم يكن في نظرهم عند الأمازيغ قبل مجيء الإسلام أي شكل من أشكال الإنتاج الأدبي والثقافي والعلمي والفني. وهذا طبعا خطأ. أو على الأصح يمكن عدها اعتبار ايديولوجي، يهدف إلى محو هوية السكان المحليين والتنقيص من قدرتهم العقلية على الإنتاج الفكري، في مقابل دور المستعمر في بناء مجتمعاتهم.

وما ينطبق عن الفترة القديمة، ينطبق عن الفترة القروسطوية التي تمتد في المغرب الكبير من القرن السابع حتى نهاية القرن 19م، وقد يبدو هذا غريبا لمن يشتغل بالتاريخ، لكن الأفكار في بلادنا، والحق يقال، استمرت قروسطورية أكثر من اللازم. ولكن الذي نريد التنبيه إليه هو أن كثيرا من الأفكار العلمية التي كانت في الأصل من إنتاج مغاربي تم اختلاسها ونسبها إلى شعوب غير مغاربية كما يقول الباحث عبد السلام نميس، ومنها ما شاع في العصور الوسطى، حينما أخذ الأوربيون على المغاربيين ما يسمى بالأرقام العربية، التي هي في الواقع مغاربية، ظهرت لأول مرة في المجتمعات المغاربية، ولم يسبق للمشارقة أن تداولها إلى يومنا هذا.

من كل هذا نستنتج أن القول بكون المغاربة، خاصة القدامى، لم يعرفوا إلا الجبال والخيام والرعي، وأن ثقافتهم كانت منحصرة في قليل من الأفكار البدائية المرتبطة بالجانب العملي للحياة، قول فيه نوع من الحيف والتحريف والمزايدة(3).

ومما سبق، يتبيّن أن المغاربة القدامى، عرفوا كل العلوم التي عرفتها عوام شعوب العالم المتحضر القديم، وبرعوا في أكثرها تجريدا مثل الرياضيات والمنطق والفلسفة.

كما بنوا المدارس حتى في القرى الصغيرة. وعرفوا أنظمة التعليم المؤسس على مراحل(ابتدائي، ثانوي، عالي). ومارسوا المحاماة والجدل الديني والريطوريقا

البيانية والقضائية. وأداروا أكاديميات بأثينا وبروما وفي حواضر شمال إفريقيا، وساهموا في خلق وتطوير توجهات فكرية ذات قيمة عملية كبيرة.

لقد عرفت كل المجموعات الحضارية في تاريخها، جوانب من النمو المعرفي في فترة من فترات معينة. بفعل تتدخل عوامل متبعة ومحفزة على ذلك، وفي نمو المعارف من جهة، ومن جهة أخرى، تتدخل عوامل معيقة في تراجعها، وعادة عندما ينمو ميدان علمي معين، تنمو ميادين فكرية منسجمة معه بصورة شاملة. ولا شك أن هذا البناء المعماري الذي هو العلم، قد ترعرع في فترات تاريخية في أحضان ثقافات كثيرة، طبعته كل واحدة بطابعها الخاص، ويمكن القول إن العلم تراث مشترك، ولازال متركا، يساهم فيه أبناء الثقافات العديدة، بنصيب معين حسب ما يتاح لهم من فرص.

وقد عرف شمال إفريقيا وبالتحديد الفضاء المغاربي، فترات إشعاع علمي متميز، خصوصا في عصر ما قبل الميلاد والوسيط، حيث نمت العلوم العقلية والنقلية، ساهمت في تطور حضاري للمجتمعات المغاربية، ووصلت مختلف العلوم مستوى مهما جعل الأقوام المجاورة ان تتلمذ على يد علمائها وفلاسفتها(4).

ولا ينمو العلم في شكل وضع اليد على حقائق تقدمها الطبيعة من تلقاء ذاتها فقط، ولا في شكل حدس مباشر بدون مقدمات. بل أيضا يشتغل في سياق الثقافي ومجتمعي متكامل، منه يتغذى ومنه يستمد لغته ومفاهيمه

وصوره وأدوات التجريب والتعقل والفهم. وعليه، فالعلم يتفاعل مع المناخ الثقافي السائد في المجتمع وهو الذي يصنع علاماته، لأن أسلوب النظر، هو تعبير عن عادات الذهن السائدة، وهو أيضا جزء من طريقة الحياة المعتادة لدى الفاعلين في الفكر عامة. واليات الاستدلال بالذات تتأثر بالمناخ الفكري وجه عام.

ومن بين الأسماء الجزائرية القديمة التي شغلت على المعرفة نجد:

تيرينشي آفر أو تيرنتيوس آفر (159 ق م) : "أنا إنسان لا يخفى عني أي شيء مما هو إنساني"

لقد كان من عواقب الحرب البونية الثانية وانهزام قرطاجة فيها، أن حمل إلى روما صبي أمازيغي أسيرا فاتخذه أحد أعضاء مجلس الشيوخ غلاما له ثم أعتقه، فسمي باسم سيده تيرنتوس بالإضافة إلى نسبه افر أي الإفريقي، فتضلع في معارف عصره باللغتين اليونانية واللاتينية فألف ستة مسرحيات: كان يطالع بها جمهوره بواحدة منها كل سنة ما بين سنة 166 و160 ق م فصارت له شهرة كبيرة واتهم بالسرقة الأدبية ومن مؤلفاته: الإخوة، ومعذب نفسه، والخصي وهو صاحب قولة شهيرة: ومن إفراطه في حب مؤلفاته، وقيل أنه مات حزنا بأرض اليونان، بعد أن ضيع في البحر مخطوطاته وهو في سن الثلاثين.

أبولاي: ولد حوالي 125 وتوفي 175 م بعد آن تعلم بأثينا، ثم رجع إلى بلده فاتهم بممارسة السحر، فدافع عن نفسه في كتاب بعنوان في السحر، وبعد ذلك تفرغ للتأليف إلى أن أصدر كتابا في إحدى عشر جزءا، وبه وضعه تاريخ الفكر في مصاف الخالدين، وهو كتاب التقمصات. اتخذ الرواية الطويلة لوصف الأوضاع الاجتماعية وتوظيفها في السخرية وكان ذو نزعة صوفية![5].

فلسفة ابوليوس المدواري:

يعد أبوليوس أشهر مناطقة المغاربة القدماء على الإطلاق، ومن مؤلفاته: كتاب فلوريدا وهو عبارة عن مجموعة من خطبه في الريطوريقا البيانية، وكتاب ابوليكا في الريطوريقا القضائية وأخيرا كتاب التحولات، الذي يعد عمله الأساسي، الذي احتوى على أوّل قصة مكتوبة على شكل نثر في تاريخ الأدب الإنساني.

ومن مؤلفاته الفلسفية نجد: كتاب حول اله سقراط، وكتاب حول مذهب أفلاطون،والجزء الثالث منه خصه للمنطق فقط، ولقد وصلنا هذا الجزء بعنوان: "في العبارة"، الذي فيه اهتم أبوليوس أولا بنحت وتصميم المصطلحات تقنية، التي وظفت في اللغة اللاتينية ، فكانت لغة أهل شمال إفريقيا، ولهذا وضع هذا الفيلسوف ولأول مرة ما يعرف اليوم ب: المصطلح ومفهوم القضية، وفي الفصل الأول من هذا الكتاب حاول ابوليوس تقريب

قارئه من معنى الخطاب الذي يهتم به فن الجدل. أما في الفصل الثاني فقد تناول القضايا وأنواعها، وفيه ادخل ابوليوس لأول مرة مقولتي الكم والكيف، وفي الفصول الباقية اهتم بمسألة ترابط القضايا وبأنواع الاستدلال وقواعد تحققه. وفي الفصل الخامس عرض ابوليوس ولأول مرة أيضا ما يعرف اليوم بمربع التقابلات. ورغم تأثر ابوليوس بأرسطو والرواقية معا، إلا أنه لم يتردد قط في انتقادهما معا، واعتبر كتابه هذا أهم الكتب المنطقية التي كتبت باللغة اللاتينية(6).

ومن أشهر كتب كتب أبو ليوس نجد:

كتاب فلوريدا: هو عبارة عن مجموعة من الخطب ومحاضرات ألقاها بالمسرح العمومي لمدينة قرطاج، بعضها وجهها إلى قناصلة قرطاج، والبعض الأخر وجهه ضد الفلاسفة، وكان يتميز بالفصاحة.

كتاب ابولوجيا: وهو عبارة عم مجموعة من الحجج صاغها ابوليوس للدفاع عن نفسه أثناء مرافعته ضد أصهاره، في تهمهم له باستغلال أموال زوجته في قضايا علمية ، وهو كتاب في ريطوريقا الخاصة.

كتاب ميتامورفوس: أو الحمار الذهبي، وهو أكثر كتبه شهرة، بما أنه نسخة وحيدة للأدب الرومانسي اللاتينوفوني. وهو يتكون من إحدى عشر فصلا، وفيه يصف مغامرات شاب يسمى لويوس تحول إلى جحش ذهبي بطرق

سحرية، وبعد مغامرات كثيرة ملأت القصة رجع إلى حالته البشرية الأولى، وهو كتاب في الديانات الإفريقية القديمة.

كتاب ارماغوراس

كتاب علم الحساب وكتاب الفلك

كتاب الديالوك : وهو ترجمة لمحاورة فيدون، وكتاب اوراتيكوس، وكتاب الجمهورية، وكتاب حياة سقراط.

من بعض أفكاره الفلسفية:

يصنف ابوليوس الكائنات العاقلة إلى ثلاثة أصناف: الآلهة وهي تسكن السماء وليست لها القدرة على مغادرتها، وكائنات البشر وهي تسكن الأرض وليست لهم القدرة على مغادرتها، وأخيرا الملائكة والشياطين، وهم الذين يقومون بدور الوساطة بين الآلهة والبشر. وتتمتع هذه الكائنات بجميع المواصفات التي تسمح لها بالقيام بهذه المهمة، ثقيلة بما فيه الكفاية لتنزل إلى الأرض. وخفيفة بما يسمح لها الصعود إلى السماء، ومن المهام التي تقوم بها، نقل دعاوي البشر إلى السماء وتنقل إلى البشر أفعال الخير الصادرة عن الآلهة(7). ويصنف أبو ليوس الملائكة إلى أصناف حسب المهام: فهناك ملائكة الموت وملائكة النوم وملائكة الشعر وملائكة الذكاء، ولكل إنسان ملك يرافقه وإلى هذا الصنف ينتمي ملك سقراط، وقد أعجب ابوليوس

بسقراط وبملكه، ويعتقد أن قاعدة الحياة هي إرضاء كل واحد لملكه كما فعل سقراط لما تجرع السم تبعا لنصيحة ملكه.

وأما علم المنطق، فقد ترك لنا ابوليوس فصلا كاملا للمنطق في كتاب له حول أفلاطون وهو بعنوان في العبارة.

لم ترد كلمة المنطق في النص الأصلي في كتاب ابوليوس، وقد اختار عبارة أخرى لوصف مبحث المنطق بشكل عام، وهي الفلسفة العقلية. وموضوعه فن الخطابة أو فن المناظرة، ويؤكد ابوليوس أن هذه العبارة اللاتينية متضمنة في عبارة الفلسفة العقلية، وبالنسبة لأبوليوس هو هناك نوع واحد من الخطاب يمكن تناوله في المنطق وهو الخطاب الإخباري، لأنه هو الوحيد الذي يحمل الصدق أو الكذب. فهو خطاب كامل المعنى والذي نعبر عنه اليوم بالقضية، وهذا يعني أن موضوع المنطق عند ابوليوس هو القضايا التي هي أدوات للجدل.

وفي عصره ازدهرت الكتابة باللاتينية بين المغاربيين القدامى، وفيه أيضا ظهر صنف أدبي جديد، هو الأدب المغاربي اللاتينوفوني، الذي يتميز عن الأدب الروماني.

معالم الفكر المغاربي القديم:

التعليم: قلّد المثقفون المغاربة القدامى اليونان والرومان في نظامهم التعليمي الذي بنوه. وهكذا اكتشف المغاربييون أولا الريطوريقا والدراسات الأدبية بشكل عام. وفي البداية، سواء عند المغاربيين أو عند الرومان، كانت مواد التدريس تنحصر فقط في الأدب الإغريقي ونحو اللغة الإغريقية والريطوريقا والسفسطة والرسم والنحت والموسيقى والرقص. وكانت هذه المواد تعطى إما على شكل دروس جماعية في الأمكنة العامة. وكانت الدروس تعطى باليونانية سواء في روما أو في شمال إفريقيا القديم، ولم تبدأ اللاتينية تحل محل اللغة اليونانية في التدريس إلا مع ظهور كتاب لاتين كبار، خاصة في نهاية الأول مع الأديب كيكرو(106-43ق م) والشاعر فريجل(70-19م) وغيرهما. ولكن رغم ذلك، بقيت الفلسفة اليونانية في مضمونها وفي لغة تدريها، ولقد سيطرت على الساحة الفلسفية الرومانية مجموعة من المدارس اليونانية، وخاصة الفيثاغورية والابيقورية والرواقية، ثم الافلاطونية الحديثة من القرن 3 ق م حتى القرن 5م.

بعد كيكرو كتب بعض الفلاسفة المغاربيين والرومانيين بالاتينية ولكن اغلبهم كان يفضل الكتابة باليونانية. وحتى الذين كتبوا باللاتينية كانت دراستهم الفلسفية باليونانية، يمكن القول نفس الملاحظة على المواد العلمية المدروسة بالتعليم العالي. لقد بقيت هذه المواد تعطى باللغة اليونانية وما كان يدرس باللاتينية أحيانا ليس الا ترجمات لنصوص يونانية الأصل[9].

التعليم النظامي: وإذا أخذنا بعين الاعتبار منطقة قورينا التي كانت مستعمر يونانية منذ القرن 7ق م، فيمكن القول أن التعليم الابتدائي ظهر بشمال إفريقيا وبروما في الوقت نفسه، أي خلال القرن 6 ق م، ويقوم بهذا التعليم معلم ابتدائي متخصص، وتستغرق مدة التدريس خمس سنوات، خلالها يتعلم التلميذ القراءة والكتابة والحساب.

التعليم الثانوي: لم يظهر التعليم الثانوي عند الرومان الا في القرن(3ق م)، وهي فترة التي كانت فيها الثقافة مزدهرة في قورينا بشمال افريقيا. وكان التبادل الثقافي بين هذه الأخيرة وأثينا من جهة، وبينها الإسكندرية من جهة ثانية في أغنى عصوره، ولم يأخذ التعليم الثانوي عند الرومان صيغته النهائية إلا في أواخر القرن (1 ق م). حيث بدأت نصوص بعض الشعراء اللاتين مثل: فريجل، تدرس بالمدارس الثانوية. ويقوم بالتدريس بالتعليم الثانوي أستاذ نحوي، وتستغرق مدة التعليم سبع السنوات. يعتمد مقرر الدراسة بالثانوي على تلقين النصوص الكلاسيكية شعرا كانت او نثرا، سواء باللغة اليونانية او اللاتينية.

يفسر الأستاذ النص، ويعطي في الوقت نفسه درسا في النحو، ويجبر التلميذ على حفظ الدرس عن ظهر قلب، وعرضه أمام الأستاذ. ومن بين الشخصيات المدروسة: الفيلسوف الامازيغي ابوليوس المادواري (125–180 ق م)، والشاعر فريجل والكاتب كيكرو وأوربيد (480–406 ق م) وهوميروس

وهيزيود وديموستين(384–322ق م) وغيرهم، ويقوم الأستاذ النحوي أيضا بتلقين بعض المبادئ في العلوم العقلية مثل الرياضيات والهندسة والحساب والموسيقى وعلم الفلك. ثم ينتقل إلى مادتي فني المسرح والفيللوجيا، وإبتداء من القرن(1 ق م)، أضاف الرواقيون مادة تقنية أخرى موضوعها الدراسات المنهجية لعناصر اللغة والنحو(9).

التعليم العالي: بحكم استفادة منطقة قورينا من الثقافة اليونانية، ظهرت في هذه الجهة من شمال إفريقيا القديم نظام التعليم العالي قبل ظهوره في روما، أي قبل القرن (1 ق م). ولقد سيطرت على هذا المستوى التعليمي مادة الريطوريقا، ولكن رغم ظهور مدرسة الريطوريقة عند الرومان، لم تكن الدروس تعطى باللاتينية بل باليونانية، سواء في روما أو في شمال إفريقيا. يقوم بالتدريس في التعليم العالي الأستاذ الخطيب، وتشتمل مواد التدريس على الخصوص على مواد خطابية وعلى مواد فلسفية تتكون من ثلاثة تخصصات: الأخلاق، الطب، المنطق، وعلى مادتي الجغرافيا والتاريخ. لكن التعليم العالي القديم كان يعادل بالنسبة لكثير من الطلبة المغاربيين دراسة الريطوريقا فقط. وكانت هذه الأخيرة تمارس في المسائل القضائية والسياسية والبيانية.

أما الفلسفة في التعليم العالي، فقدكانت تعلم داخل مدارس أو على شكل دروس حرة من طرف أساتذة مستقلين، كما ان هناك أساتذة للفلسفة المتجولين .

يبدأ طالب الفلسفة بدراسة الفلسفة ومسائل عامة حول تاريخ الفلسفة، ثم يتفرغ لدراسة فلسفة المدرسة التي ينتمي اليها، وغالبا ما يحتوي المقرر الدراسي على ثلاثة نماذج نظرية: نموذج في مبادئ المعرفة(المنطق) ونموذج حول العالم(الفيزياء والجغرافيا) ونموذج في علم الأخلاق، وهذا تقسيم عرفه اليونان منذ أفلاطون.

أهم المراكز الثقافية: في العالم القديم كانت العواصم العلمية موزعة كما يلي: الإسكندرية وقسنطينة في الشرق وأثينا وروما في الغرب، وقورينا وقيصاريا وقرطاج في شمال إفريقيا.

1- جامعة قورينا: قورينا هي أول مستعمرة يونانية بشمال إفريقيا القديم وذلك منذ القرن(7 ق م). وباعتبار قرب قورينا من الإسكندرية التي كانت أكثر جامعات العالم القديم بجنوب البحر الأبيض المتوسط ازدهارا، فإن عدوى العلم انتقلت أيضا الى جارتها قورينا. ولقد كان فلاسفة اليونان الكبار من أمثال افلاطون يترددون على مصر وعلى قورينا بالذات طلبا للمزيد من العلم، لقد كان أفلاطون يزور الرياضي الافريقي ثيودورس بقورينا، قصد تعلم الرياضيات حسب ما قاله هو نفسه في محاورة ثياتيتوس [(10)]، ولقد نشأت في قورينا مدارس علمية وفلسفية منها:

المدرسة الفلسفية القورينية التي تأسست على يد الفيلسوف القوريني اريستيبوس (435-300ق م)، والتي طورت فلسفة اللذة وتجنب الألم، أو ما

يسمى اليوم بالمذهب اللذي، وهو مذهب أخلاقي محض يقوم على أساس اللذة الحسية بما أنها الخير الأسمى، وأن السعادة تكمن في الشعو المباشر باللذة الحسية. ومن مصادر هذه الفلسفة، نجد سقراط من جهة وبروتاغوراس من جهة أخرى. فمن تعاليم سقراط، نجد أن السعادة هي الخير الأسمى، ومن تعاليم بروتاغوراس، أن المعرفة البشرية نسبية، اقتبس هذه التعاليم مؤسس المدرسة نفسه أي اريستيبوس وابنته أريتي وابنه اريستيبوس. فلإحساس بالنسبة لهم هو مقياس للأخلاق ومقياس المعرفة في الوقت نفسه حسب بروتاغوراس، كل معارفنا هي نسبية، لأن الحقيقة هي ما يبدو لنا وبالتالي لا يمكننا معرفة الشيء في ذاته، وإنما ما يمكننا معرفته هو إحساساتنا فقط والانطباعات التي تخلقها الأشياء فينا، حيث أنهم نقلوا هذه التصورات وطبقوها على الاخلاق، وبافتراضهم أن الهدف الاسمى للسلوك الأخلاقي هو تحقيق السعادة، استنتج هؤلاء الفلاسفة أن الوصول الى السعادة يحصل عن طريق إنتاج الاحساسات اللذيذة وتجنب الاحساسات المؤلمة. فاللذة إذا هي الهدف الاسمى للحياة.

ومن أبرز روادها نجد: هجيسياس(4 ق م) والفيلسوف انيسريس(3ق م) وكاليماخوس 315-240 ق م) والفيلسوف كارينياس(214 - 129) والفيلسوف اركيسيلاوس(316-241) ويعتبر هذا الأخير مؤسس الاكاديمية الجديدة التي دافعت عن التوجه الاحتمالي والمذهب الشكي في المعرفة.

جامعة قايصاريا(شرشال): يعتبر بعض المؤرخين مدينة قايصاريا (شرشال حاليا)، المدينة الوحيدة التي اهتمت منذ القرن الأول قبل الميلاد بدراسة الفنون والآداب والفلسفة على الطريقة اليونانية، وكانت هذه المدينة عاصمة لمملكة يوبا الثاني الذي مارس في الوقت نفسه، السياسة والفلسفة، وفي عهد هذا الملك الامازيغي كانت لغة المثقفين الامازيغيين هي اليونانية، وفي إطار التبادل الثقافي بين مملكة يوبا الثاني واليونان، استقدم هذا الملك فلاسفة وعلماء يونانيين. كما رحل علماء وفلاسفة من مدينته مثل هاسدروبال الى أثينا، وفتح فيها مدرسة فلسفية ليحل بعد مدة محل الفيلسوف كارينياديس، ثم حل محله هاسدروبال في رئاسة ما يسمى بالأكاديمية الجديدة التي أسسها ارسيسلياس في القرن الثالث(3 ق م)، ولم يكتف يوبا الثاني باستقدام العلماء والفلاسفة فقط، بل استقدم أيضا الخطباء والنحويين ورجال المسرح وحتى الطباخين. ولقد شرفه اليونان آنذاك بنحت تمثال له ووضعه امام الخزانة الرسمية لمدينة أثينا القديمة ثم منحوه الجنسية اليونانية. والواقع أن يوبا الثاني حقق لأول مرة في تاريخ السياسة ما يسمى بالمدينة الفاضلة التي طالما حلم بها افلاطون، مدينة يحكمها فيلسوف تساعده في تسيير شؤونها جماعة من الفلاسفة، فلا غرابة إذن أن يلتقي كل هذه التقديرات من طرف اعرق مركز حضاري قديم الذي هو أثينا(11).

مارس يوبا الثاني الكتابة باليونانية، رغم كونه تربى بروما. ألف بالخصوص في ميادين الفنون الجميلة والنقد والتاريخ والفلسفة. وكان يملك بقصره متحفا وخزانة كتب هامة، وبفضل اهتمامه بالفلسفة والعلوم والفنون، أصبحت جامعة قايصاريا تضاهي جامعة الإسكندرية بمصر. فحج اليها شباب كثيرون من كل انحاء شمال افريقيا وحتى من أثينا ومن روما لحضور محاضرات الأساتذة اليونان. ويوبا الثاني ليس هو الوحيد الذي ألف باليونانية، بل ألف بها أيضا الفيلسوف المغاربي كورنوتوس اللبتي القرن (1م) والريطوريقي المغاربي فرنطو قرن (2م)والفيلسوف أبو ليوس المدواري، لقد عاش هذا الأخير باثينا وكتب باللغتين اليونانية واللاتينية بل وترجم من اليونانية الى اللاتينية كتبا في المنطق وفي الفلسفة، والف أيضا باليونانية كل من تيرتوليانوس ولكتانتوي قرن (3م) وغيرهما.

لكن الرومان في إطار حملتهم الاستعمارية على شمال افريقيا قضوا على مدينة قايصاريا وقتلوا ابن الملك يوبا الثاني المدعو بيطليموس، وبذلك وضعوا حدا للتأثير اليوناني على البلدان المغاربية، وذلك في عهد الامبراطور الروماني كاليكولا (37م–41م)ومنذ ذلك الحين بدأت اللغة اللايتينية تحل محل اللغة اليونانية في كل المجالات الثقافية في منتصف القرن الأول الميلادي[12].

شمال إفريقيا رغم الحروب والاضطرابات السياسية، إلا أنه استطاع أن يصنع لنفسه مكانا خاصا في عالم الفكر. ورغم استيلاء الرومان على قايصاريا، إلا

أنها بقيت مشعلا للفكر المغاربي القديم. أما في نوميديا (سوق أهراس)، فقد نشأت مراكز ثقافية أخرى خاصة في المدن التالية: وفي بيزانسيا (جنوب تونس) كانت الثقافة متمركزة في مدينة سوس، وفي مدينة ليبيا كانت مدينتا أويا وليبتيس.

مراكز ثقافية أخرى: بالإضافة إلى المراكز الثقافية المغاربية الأساسية، برزت مراكز ثقافية مغاربية أخرى أقل أهمية، ولكنها لعبت دورا أساسيا في تموين شباب شمال افريقيا على مستوى التعليم الابتدائي والثانوي ومنها:

مدرسة تيبيسا: وهي مدينة تقع في شرق الجزائر ،كانت هذه المدينة مخفرا أماميا لقرطاجة في القرن(7 ق م) وقلعة رومانية ابتداء من (146 ق م) ثم خفقت أهميتها مع دخول الوندال خلال القرنين (5 و6م) وأخيرا اختفت نهائيا مع مجيء العرب في القرن(7م). وكانت بها علماء وفلاسفة كبار.

مدرسة سيرتا: من المعتقد أن الفينقيين هم الذين اسسوا هذه المدينة، لكن من المحتمل أن تكون لها أصول ما قبل تاريخ، غير أن أهميتها كمدينة نوميدية لم تظهر الا ابتداء من قرن(3 ق م)، لما كانت عاصمة للملوك الامازيغ الماسيليين، ووصلت قمة شهرتها في عهد الملك ميكيبسا خلال القرن(2 ق م)، وفي سنة(313 ق م) حملت اسم قسنطينة.

مدرسة هيبوريكيوس(قسنطينة)

تاكاست(سوق أهراس): هي مدينة نوميدية قديمة، اشتهرت بكونها مسقط الفيلسوف القديس أوغسطين والقديس فيرموس في (ق3م) والقديس البيبيوس (ق4م) والقديس يانواريوس (5م).

مدرسة مادورا (سوق اهراس): هي أيضا مدينة نوميدية قديمة، كانت تنتمي الى مملكة سوفاكس (ق3 ق م) ثم ألحقها الرومان بمملكة ماسينيسا (ق 3 ق م) مع نهاية الحرب البونية (218–201 ق م) وبعدها أصبحت مستوطنة رومانية كانت مشهورة بمدارسها وعلمائها وفلاسفتها، فهي مسقط الفيلسوف النحوي أبوليوس المدواري، والنحوي ماكسيموس ونونيوس والقديس أوغسطين.

شخصية المثقفالمغاربي : الطريقة الوحيدة التي تسمح لنا باكتشاف شخصية المثقف، هي دراسة انتاجه العلمي والفلسفي والادبي وتتبع سلوكه في حياته اليومية. وهذا ما فعله المؤرخ الفرنسي مونصو في دراسته لعلاء المغاربة القدماء ويمكننا ان نجملها في النقاط التالية:

لقد تأثر المثقف المغاربي القديم حيث الأفكار باليونان، وخاصة بالأفكار الهيلنستية، وهكذا نجده معجبا بالأفلاطونية الحديثة وبالتصوف الديني والفلسفي. أما من ناحية الأسلوب فقد تأثر المثقف المغاربي بالأسلوب الروماني سالسوت، وهو أسلوب مبار يختلف عن أسلوب كيكرو الثقيل.

ولع المغاربة القدامى بالأفلاطونية الحديثة، مما أدى بهم إلى حب التصوف، فهذا الأخير يعد من المكونات الأساسية للحياة الثقافية المغاربية، ومن المسائل التي ارتبطت به حب العمل في اطار الجماعات الدينية وحب الديانات والتأويلات. لقد أخذ المثقف المغاربي بجد كل نزوات الافلاطونية الجديدة والسحر والتنجيم، وقد تقال هذه الخاصيات على المثقف المغاربي القروسطوي في علاقاته مع الحضارة الإسلامية أو على المثقف المغاربي الحديث والمعاصر في علاقته مع الحضارة الغربية. أيضا كونه ذا فكر خصب وذا مخيلة حادة، وهناك من يعمم هذه الخاصية لتصبح خاصية للذهنية المغاربية بشكل عام، فهذه الأخيرة يقول مونصو أنها تفضل الصورة على الفكرة وتستجيب للألوان أكثر مما تستجيب للأشكال، وتتلاءم مع الشعر اكثر ملاءمة مع الخطاب البرهاني، وهو السبب الذي جعلهم يتقنون فن الريطوريقا في الحياة اليومية أكثر من إتقانهم للمنطق الصوري، والريطوريقا هي الأسلوب الادبي الأكثر ملائمة للشخصية المغاربية، وحب المغاربي للريطوريقا راجع الى حبه للضجيج والأجواء الجماهيرية.

فميل المثقف المغاربي إلى الخيال، جعله غالبا ما يخلط بين ما هو واقعي وخرافي، وكثيرا ما يخطئ بالإحساس بالمقادير، وبالتالي لا تستهويه الحالات التي تقتضي القياس والموازين. وشكل عام، يشبه مونصو المثقف المغاربي بالإله الروماني يانوس ذي الوجهين: فمن جهة هناك المظهر الخارجي

العقلاني الصافي والمعرفي على الطريقة الغربية، ومن جهة أخرى هناك الهيئة المتلقبة والحاملة على الطريقة الشرقية(13).

يوبا الثاني(25ق م): ولد يوبا الثاني في مملكة نوميديا وهو ابن ملك يوبا الأول الذي عارض حكم روما في الجزائر ووقف سدا منيعا في وجه بوكد وبوكوس، واحتل مملكتهما مسترجعا أملاك والده، وبعد هزيمة والده تم نقله الى بلاط روما وعاش في كنف الإمبراطور وأغسطس، وهناك تعلم القراءة والكتابة والفنون والفلسفات والسياسة. وقد عيّن قائدا لموريتانيا الغربية (الجزائر والمغرب حاليا)، واستمر حكمه قرابة خمسين سنة وقد عرفت فترة حكمه بالازدهار والاستقرار، ليخلفه في الحكم ابنه بيطليموس وفي توحيد القبائل الأمازيغية. وما يلاحظ عن شخصيته هو موسوعيتها الفكرية والثقافية، وذات خبرة محنكة في السياسة والتدبير الإداري، وتميز بنباهته ونبله ورفاعة أخلاقه وخدمته للشعب، وهنا يقول الباحث مُحَمَّد بوكبوط: لعله من المفيد إلى شخصية هذا الملك المتميزة، فعلاوة على أصله النوميدي الأمازيغي، وتربيته الرومانية، فهو بونيقي، بما ورثه من قومه من حضارة قرطاج، وإغريقي بثقافته وذوقه الفني، ومصري بزواجه من ابنة كليوباترة ملكة مصر، كل هذه الجوانب روعيت بدون شك من طرف الإمبراطور عند اختيار يوبا لاعتلاء عرش موريطانيا) (14)

وقد أقام يوبا الثاني في عاصمته شرشال حكما ديمقراطيا نيابيا تمثيليا، إذ طالب بتكوين مجلس بلدي يتم انتخاب أعضائه من بين المواطنين الاحرار، ويتولى كل مجلس تسيير أمور المدينة على غرار المدينة الرومانية، بالإضافة إنه حقق في عصره طفرة اقتصادية متميزة وازدهارا تجاريا كبيرا، فشجع الزراعة والصناعة والتجارة، وأقام مشاريع صناعية مثل صناعة الأصباغ وتمليح الأسماك(15).

اسهامات يوبا الثاني في مجال الفكر والثقافة: تعد إسهامات يوبا الثاني في مجال الثقافة والفكر أهم إنجازاته السياسية والإدارية والاقتصادية، فقد عرف يوبا الثاني مفكرا ومثقفا وعالما أكثر مما عرف حاكما وسياسيا. ومن مؤلفات يوبا الثاني:

يعد يوبا الثاني من كبار العلماء والفلاسفة الامازيغ الذين عرفوا عند اليونان والرومان واللاتين بسعة المعرفة، والتبحر الموسوعي، اذ كان يمتاز بكثرة العلم وكان كثير السفر والبحث والتجوال وموسوعي المعارف والفنون، وقد الف الكثير من المؤلفات والبحوث في التاريخ والجغرافيا والطبيعيات والآداب والطب. وهنا يقول حسين مجدوبي : لا نعرف من مؤلفات يوبا الثاني سوى تسعة عناوين، ولا نرى كثيرا غيرها، وكانت كلها باللغة الاغريقية، ولم يصلنا أي واحد منها، ولكن بقيت منها مقتطفات كثيرة الإستشهادات المروية عنه

بنصها الى حد ما، والمبعثرة في كتب مختلف المؤلفين: مثل بلين، وبولتراك، وأثيني وغيرهم، والحق ان جل هذه المقتطفات قصيرة جدا)[16].

ومن اهم الكتب التي الفها يوبا الثاني نذكر: ليبيكا، وأرابيكا، وموسوعة الموسيقى الضخمة، وكتاب تاريخ روما، الآثار الرومانية وكتب الأشباه (15جزءا) ومختصر الأشوريين (جزءان) ورسالة صغيرة عن نبات أوفورب، وكتاب عن فن الرسم (8أجزاء) وتاريخ المسرح.

وكما يقول اندري شارل جوليان في كتابه تاريخ شمال افريقيا(كان يحسن اليونانية واللاتينية والبونيقية، وكان في تأليفه اخذا من كل شيء بطرف، فلم يبقى علم واحد غريبا عنه، وكان في إمكانه أن يكتب في كل موضوع بفضل مكتبته الثرية ونساخه الذين لا يعرفون التعب. غير أن تأليفه لم يبق بعده، ولعله من المؤسف ان يكون كتاب لبيكا قد ضاع، اذ ربما وجدنا في كتاباته عرضا لبعض المعلومات عن التقاليد المحلية[17].

المكتبات في عصر يوبا: أنشأ يوبا الثاني خزانات ضخمة في المدن التي كان يشرف عليها خاصة مكتبات قصوره، وقد جمع فيها أنواع من الكتب والمخطوطات القيمة والدراسات، خاصة الكتب اليونانية والمصرية واللاتينية والفينيقية التي وجدت في مكتبة قرطاج، وقد ورثها عن جده الأكبر همبسال، وقد حافظ على النسخة الأصلية من رحلة حانون، وربما يكون قد ترجمها بنفسه الى اليونانية، ويعني هذا انه جمع كل مخطوطات مكتبات قرطاج

الزاخرة. ويقول ستيفان أكصيل << وكان لابد له، لانجاز بحوثه وكتاباته،من خزانة حسنة ومن عدد كبير من الناسخين والملخصين، وربما حتى من المساعدين الذين لهم منزلة أعلى. وكانت ثروته الملكية تجد في هذه المصاريف مساغا كريما، واشتهر عنه انه كان يؤدي الثمن بسخاء[18]>> .

يوبا الثاني والعلماء: استقطب يوبا الثاني نحو عاصمته شرشال كبار الأدباء والفنانين والنحاتين والعلماء والأطباء ومن قرطاجة وأثينا، وفي هذا الصدد يقول ستيفان اكصيل<<بعد قرطاجة، فشرشال، هي الوقع الذي أعطى أكثر النقوش الإغريقية بشمال إفريقيا وأكثرها راجع للعهد الروماني وغيرها لا يمكن التاريخ له، ولكن اثنين منها على الأقل قد وقع نقشهما قبل استيلاء الإمبراطورية، فقد كان يوبا بفضل إحاطة نفسه برجال من أصل هيليني: كالطبيب أوفرب والممثل ليونيتوس وسكرتارين يساعدونه في تهيئة كتاباته ومهندسين ومثالين وفنانين آخرين، وقع استدعاؤهم للعمل في العمارات التي كان يزين بها عاصمته>>[19].

يعد يوبا الثاني من أهم المؤلفين للموسوعات في التاريخ القديم، ويمكن القول بأن الامازيغ كانوا سابقين إلى التأليف الموسوعات الكبرى. فقد ألف يوبا الثاني موسوعة في ثلاثة مجلدات ضخمة سماها بالليبيات أو ليبيكا، جمع فيها رحلاته العلمية المختلفة، وضمنها كشوفاته الطبيعية والجغرافية المتنوعة، وأرفقها بأحاديثه عن جغرافيا المغاربية، سيما ما يتعلق بالمجتمع الامازيغي على

مستوى اللغة والعادات والتقاليد والأعراف، بمعنى أن هذا الكتاب مخصص لتاريخ افريقيا الشمالية .

الفنون: اهتم يوبا الثاني بالفنون اهتماما كبيرا، وهذا دليل على ذوقه الفني الرفيع وتأثره بالثقافات المجاورة ومن أهم الفنون التي استرعت اهتمامه نجد:

الموسيقى: عرف يوبا الثاني بإقباله الشديد على الموسيقى، فخصص لها كتابا كبيرا عرف فيه بمخترع الموسيقى، وأشار فيه الى طبيعة حرفتهم ونوعية الآلات الموسيقية ورصد إيقاعها وألحانها، كما تحدث بإسهاب عن الفنون المجاورة للموسيقى مثل: الرقص والتمثيل والمسرح. وقد أثبت الباحث الجزائري بوزيان الدراجي بأن يوبا الثاني أنشا معهدا لتعليم الموسيقى بعاصمته القيصرية بشرشال، كما ألف موسوعة موسيقية مهمة، وفي هذا يقول: <<يعلم الجميع المجهودات الجبارة التي قام بها يوبا الثاني في نشر الفنون في بلاده، مثل الموسيقى التي أنشأ معهدا خاصا لها بشرشال، كما قام هو نفسه بتأليف موسوعة موسيقية ضخمة>>[(21)].

فن العمارة : اهتم يوبا الثاني بتطوير فن العمارة وبتجميل الحواضر وتزينها على غرار الحواضر الرومانية، تقليدا لفن عمارتها وهندسة مبانيها وجمال مدنها خاصة ما شمل عاصمته القيصرية مما يعكس ذوقه الفني ومدى الرخاء الذي شهدته مملكته، فضلا عما يمكن استنتاجه من كون أنها تشجيع الحياة الحضرية يدخل في اطار السياسة الرومانية الرامية الى تدجين الامازغيين.

ويعرف أنه كان شغوفا بالعمارة الجميلة وزخارفها الفسيفسائية، كما كان ميالا الى الفنون الهندسية ووضع التصاميم الفنية الدقيقة، وتعد مدينة شرشال آية في الفن العمراني الجميل وقد سماها بالقيصرية تيمنا باسم القيصر، واعترافا له بالجميل والثناء العميم. وجلب لعاصمته مختلف الفنانين من مصر واليونان فشيدوا فيها القصور الجميلة والهياكل الفخمة ما جعلها محط أنظار الملوك والأمراء كما جلب إليها عددا من الكتاب والشعراء والفلاسفة، وهكذا فقد كانت مدينة بربرية محاطة بالأسوار والأبراج وبداخلها فوروم، أي ميدان عمومي وكابيطول، أي معبد وقوس النصر تعلوه عربة تجرها ستة خيول. وكانت بها كذلك خزائن لحفظ الكتب وتماثيل الآلهة ومسقيات وحمامات عمومية ومفروشة أرضها بالرخام. ولم تظل مكانة يوبا الثاني الثقافية والعلمية حبيسة تمازغا فقط، بل انتشر صيتها متوسطيا، سيما في بلاد اليونان.

هوامش:

([1])- مونيس بخضرة، تاريخ الوعي، مقاربات فلسفية حول جدلية ارتقاء الوعي بالواقع، دار العربية للعلوم – الناشرون، بيروت، ط1 2009، ص34.

(2)- عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الأمازيغية القديمة،دراسة في تاريخ العلوم الصورية وتطبيقاتها،ط2 2010، منشورات ditlons idgl المغرب، ص05.

(3)- المرجع نفسه، ص07.

(4)- بناصر البعزاتي، العلم والتفكير الإسلامي في العصر الوسيط، منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 94 - جامعة مُحَمَّد الخامس، 2001 ط1، ص09.

(5)- مُحَمَّد شفيق، ثلاثة وثلاثون قرن من تاريخ الامازيغيين، منشورات الجامعة، الرباط، ص 82.

(6)- عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الأمازيغية القديمة،دراسة في تاريخ العلوم الصورية وتطبيقاتها، المرجع السابق، ص94.

(7) – المرجع نفسه، ص115.

(8)- المرجع نفسه ص35.

(9)C f ، Marrou h-l 1937 st augustin et la fin de la culture antique، paris، boccard p 255

(10)- عبد السلام بن ميس، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الأمازيغية القديمة،دراسة في تاريخ العلوم الصورية وتطبيقاتها، المرجع السابق، ص36.

(11)- المرجع نفسه ص42.

(12)- المرجع نفسه، ص42.

(13)- المرجع نفسه ص47.

(14)- مُحَمَّد بوكبوط، الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات، منشورات مركز طارق بن زياد ط 1 2002، ص45.

(15)- جميل حمداوي، يوبا الثاني الملك الأمازيغي المثقف، شبكة الألوكة ، الرباط، ص07.

(16)- ستيفان اكصيل، تاريخ شمال إفريقيا، ترجمة مُحَمَّد التازرزي سعود ج 8 المغرب ط 1 2007، ص228.

(17)- جميل حمداوي، يوبا الثاني الململك الامازيغي المثقف، المرجع السابق، ص09.

(19)- ستيفان أكصيل، المرجع السابق، ص 221.

(20)- المرجع نفسه، ص 257.

(21)- بوزيان الدراجي، القبائل الأمازيغية، ج1 دار الكتاب العربي الجزائر 2003 ص55.